٦ — من ذكريات فى بلاد النوبة :

نكبة الفيضان ! !

للأستاذ عبد الحفيظ أبو السعود

وأعنى بالفيضان مياه الخزن التى يبدأ ارتفاعها وفيضانها فى أوائل نوفمبر من كل عام . ولا يستطيع إنسان كائناً ما كان أن ينكر خطر مياه الخزن على بلاد النوبة ، وما جرته على أهلها من ألم ونصب ، ومشقة وعناء ، وما جلبته من فقر وجدب ، وقحط ومسغبة ! !

قد يبدو ذلك عجيباً ، ولكنه ليس بعجيب ، غريباً ولكنه ليس بغريب ، لأنه الواقع لا مرية فيه . وهو وإن حاولنا إخفاءه وستره ، فإننا نخفى الواقع ، ونمارى فى الحق ، ونزيد الداء استفحالا ، والشر طغياناً . ذلك أن الرجل فى بلاد النوبة يشعر بهذا الشعور ، ويبديه ولا يكتمه ، ويجعله مادة الحديث فى كل مجلس وكل مناسبة . والمرأة فى بلاد النوبة تشعر بذلك وتحس به وتعلنه فى كل مكان . والصبى والصبية والطفل والطفلة يشعرون جميعاً بذلك ويعلنونه فى صراحة .

هذه الحقيقة على مرارتها ، يجب أن ننظر إليها وندخلها فى حسابنا لنطلب لهذا الداء ، وندرأ هذا الخطر

ولا داعى للمواربة ، ما دام الأمر قد وصل إلى هذا الحد ، وخير طريق نعالج به ذلك الشعور القوى بالغبن الفادح ، والإحساس بالظلم المبين هو الإصغاء لشكاياتهم والعناية ببحث مشكلاتهم ، بحثاً يدفع بها إلى الحياة لا على طريقة البحوث الآلية التى جرت بها عادة الحكومات والتى لا يكون مآلها بعد تشكيل اللجان إلا زوايا النسيان .. ! !

والآن رُبَّ سائل يقول : وهل كذب هؤلاء شعورهم ؟ وهل جانبوا الصواب حينما اعتقدوا هذا ، ورأوا فى سد أسوان نقمة لا نعمة ، وشراً لا خيرَ فيه ؟ ثم أصبح مع الأيام عقيدة راسخة ، متأصلة فى نفوسهم لا يبغون عنها حِوَلا ؟ !

والجواب الحق ، لا . لم يكذب هؤلاء شعورهم ، ولم يحيدوا عن الحق ، فلقد دهمتهم هذه المياه مرات عديدة . . دهمتهم عند إنشاء السد ، فقالوا : شدة تزول ، ولن تعود . . ورتبوا حياتهم على ذلك واطمأنوا إلى هذه الحياة . فتركوا منازلهم الأولى ، وبنوا مساكن أخرى فى نجوة من الغرق . وأمن من الخطر وساروا على هذا النهج حيناً حتى ألفوا هذه الحياة ، وكادوا ينسون حياتهم الأولى قبلَ أن ينتقص الفيضان ومياه الخزن أراضيهم التى يزرعونها ، ودورهم التى يسكنونها وبخاصة والمساحة التى أتلفتها مياه الخزن بعد بناء السد لم تكن مساحة واسعة ، بل كانت محدودة ضيقة ، والخسائر ، ليست فادحة ، بل هينة عوضتهم الحكومة بما رأت فيه الكفاية ، وارتضوا ذلك منها ، اعتقاداً منهم أن هذا الخطر على أراضيهم ومنازلهم لن يتكرر ولن يعود ، وبهذا ألفوا هذا الوضع ، على ما به من ألم وضنى .

ثم ماذا ؟ ثم كان ما كان من أمر التعلية الأولى ، فتشتت شمل الجميع ، وتفرقوا أيدى سبأ هنا وهناك ، لا يدرون ماذا يعملون . وكانت حيرة ، وكان اضطراب ، وكأنما هذا الماء المخزون أمام السد ، عدوٌّ لدودٌ لهم .. ثم هدءوا وسكنوا ، وأنشأوا بيوتاً جديدة ولكن أرضهم انتقصت أكثر من ذى قبل وطمست مرافقها ، وتلف ذرعها . ووجدوا من عطف الحكومة عليهم ما أعاد إلى نفوسهم الجريحة شيئاً من الطمأنينة والسكينة والاستقرار ، ولكنهم ظلوا يرقبون الحوادث فى يقظة ، وكأنما علقت أنظارهم بالسد وارتبطت آذانهم بكل ما يقال عنه ، حتى تكونت فى نفوسهم عقدة نفسية تعجز عن حلها الأيام ؛ ثم طال الزمن وامتد ، فنسوا هذا كله ، ووجد أكثرهم فى الهجرة باباً من أبواب الكسب خير من الكد والعمل والزراعة والحرث ، فهاجروا إلى القاهرة والاسكندرية ، وإلى كثير من عواصم الأقاليم والمديريات .. وانبثوا فى نواحى القطر ، بحيث لا تكاد تخلو منهم بلدة من بلاده ، أو قصر من القصور ، أو مصلحة ما من مصالح الحكومة ووزاراتها ...

أما التعلية الثانية أيام صدقى باشا عام ثلاثة وثلاثين وتسعمائة وألف

فقد أثارت كوامن النفوس ، ودخائل القلوب ، وطفح الكيل بأبناء النوبة وهم يرون منازلهم للمرة الثانية ، أو الثالثة في بعض المناطق الواطئة ، القريبة من سطح النيل ، يفتك بها الماء ويطغى عليها في ثورة حانقة ، واندفاع مغيظ ..

حدثني أحد النوبيين فقال : كان أكثرنا يرى منزله يغرقه الماء رُويداً رويداً ويقضي على ما به من غلات مختزنة ، وأثاث قليل ، ولا يستطيع أن يعمل شيئاً ، لأنه مشغول بنفسه وأولاده الصغار ، وضعاف النسوة والشيوخ . !

ويمكنك أن تدرك ذلك واضحاً جلياً حينما ترتفع مياه الخزن وتبلغ ذروتها في شهر فبراير ومارس تقريباً . . لقد كنا نخرج إلى النيل ، نسير بجانب الشاطىء ، فلا يتمالك الإنسان نفسه من الأسى واللوعة والحزن ، حينما يرى ذلك النخيل وأشجار الدوم الذي كان في يوم من الأيام مورد ثروة وغنى لهؤلاء النوبيين ، ومظهر نخار ويسار ، يراه وقد تبدل الحال وتغير ، فإذا به رمز الفقر والبؤس ، تترقرق الدموع في عيون أصحابه كلما يرونه على هذه الحال ، غريقاً في النيل ، لا يبدو منه سوى رءوسه الخضر التي أخذت هي الأخرى في الذبول والانقراض بتوالي الأيام ، وكأنما هو عالم من البشر والعمالقة يبيت بآخر أنفاسه من جراء طوفان أليم ..

لقد كان إيراد النخلة الواحدة عشرة جنيهات على الأقل ، فمن كان يملك عشر نخلات أو عشرين نخلة يحيا حياة سعيدة منعمة ، كلها اليسر والرخاء . . أما الآن فقد نقص ثمار النخلة إلى حد كبير ، ولم تعد تغل أكثر من عُشر ما كانت تغله قبل أن تغمرها مياه الخزن ، هذا فضلا عن النخيل الذي يتساقط على الدوام عاماً بعد عام . أما قبل التعلية الثانية ، فكان عدد النخل وأشجار الدوم يتزايد يوماً بعد يوم ، وثمره يحلو ويكثر عاماً بعد عام ، وعناية الأهلين به تعظم كلما زاد دخلهم منه ، وتحقق أملهم فيه .. !!

ولا زلت أذكر تلك الثورات الصاخبة الطاهرة ، التي كانت تنبعث من قلوب تلاميذي في الفصل ، وتهتف بها حناجرهم ، وتبدو مغيظة مدمرة ، حينما كنت أتحدث معهم في موضوع إنشائي ، يتناول سد أسوان ، منافعه وآثاره .. !

منافعه وآثاره ؟! إنه لا منفعة له ولا فائدة فيه ..

هكذا كانت عقيدة التلاميذ ، وهكذا كانوا يعلنون هذه العقيدة على الرغم من حديثي الطويل معهم ، ومناقشتي لهم ، وشرحي لعناصر الموضوع .. إن واحداً منهم لا يؤمن بهذا السد ولا يعترف به ، ولا يعتقد أنه أدى مصلحة ما إلى القطر عظمت أم حقرت ، بل على العكس من ذلك يجب أن يكون الموضوع ، وتعرض القضية ...

لقد عذرتهم حينذاك ، لأن كل واحد منهم ، لا يرى سوى أثره في بلاده ، وخطره عليها ، وأضراره الماحقة بها ، وأنه حرمهم اللقمة السائغة ، والنبتة الناضرة ، والدوحة الباسقة ، والثمرة اليانعة ، والخير الوفير .. وطاردتهم المياه المحجوزة أمامه في عنف وقسوة وجبروت ، وأخرجتهم من دورهم ، وهدمتها هدماً ، وطمست معالمها طمساً ، وظلت تطاردهم في إلحاح ، حتى جعلتهم يسكنون فتن الجبال ، وذرى الهضاب حيث الصخر الصلد لا تؤثر فيه المعاول ، ولا ينبت فيه نبات .. !!

وبالغ بعض النوبيين في تصوير هذه البلاد على صورة عجيبة غريبة ، لقـــد قال : إنها كانت قبل التعلية الثانية جنة فيحاء ينعم أهلها بالخيرات صنوفاً وألواناً ، ولا تكاد تفترق بحال من الأحوال عن أنضر بقعة من بلاد القطر ، غنى وثراء ..!!

ولم يرقني هذا القول كثيراً ، لما فيه من المبالغة ، التي لا يجدر بالمخلص أن يتصف بها ، لأنها تضر أكثر مما تنفع ، فليس الوضع على ما يفهمه المتطرفون ، من أنه عداء ونضال ، وبغية ساب هذه البلاد خيرها ، وحظها من الخير والنعم ، بل هي الحاجة التي دفعت إليها مصلحة القطر المصري كله ، كما أبنت عن هذا آنفاً . . وهذه سنة الكون ، وقانون الوجود .. فلا داعي إذن للمبالغة والمثالاة ، وتصوير الواقع في غير صورته .. إذ أن المساحة المنزرعة قبل التعلية لا تكاد تذكر ، ومهما كانت من الخصب والنماء ، فإنها يجب ألا تصور على هذه الصورة ، ولا تنال هذه المنزلة . . ويخيل إلي أن الغلو في التصوير ، والمبالغة في التعبير ، قد أصبح قاعدة يسير عليها الناس ، حتى لا يكاد الباحث يدرك حقيقة الأمر كما يرجو ويحب ، قداسة ونزاهة .. وأعتقد أن الأمور لو وُزنت كما يجب أن توزن ، لعرفنا المهم والأهم